تحولات الدولة والمجتمع بعد الربيع العربي

احتواء الثورة
إعادة إنتاج الانقلاب

د. رفيق حبيب

ديسمبر ٢٠١٤

هل يمكن احتواء الثورة وتفريغها من مضمونها، حتى ينتهي الحراك الثوري، دون تحقيق أيا من أهدافه؟ ربما هذا ما يخطط له البعض في الداخل والخارج، فهناك العديد من المؤشرات، التي تظهر محاولات لتفريغ الثورة من أهدافها، ثم إعادة إنتاج النظام العسكري بصورة أخرى.

تتبنى محاولات تفريغ الثورة من أهدافها، أطراف داخلية وخارجية، وأيضا أطراف محسوبة على الحراك الثوري نفسه، أو تحسب نفسها على هذا الحراك. وكل تلك المحاولات، تمثل الخطة البديلة، أي الخطة التي يمكن اللجوء لها، إذا بات انتصار الحراك الثوري قريبا.

تبدو السلطة العسكرية الحاكمة مصرة على إفشال الحراك الثوري تماما، والقضاء على الثورة تماما، وأيضا تكريس الحكم العسكري نهائيا، ومع هذا فإن أطرافا في السلطة العسكرية، ربما تحاول أن تجد خطة بديلة إذا تأكد لها أن الحراك الثوري يمكن أن يسقطها.

بداخل تحالف الانقلاب، العديد من الصراعات، وهي صراعات حول السلطة والنفوذ والمغانم، وتلك الصراعات ظاهرة، وتؤكد أن تحالف الانقلاب ليس متماسكا، وأنه بداخله تعارض مصالح واضح، خاصة مع السيطرة العسكرية على مختلف موارد الدولة والاقتصاد.

الصراعات داخل تحالف الانقلاب، لا تقود في الغالب إلى تمرير سيناريو الانقلاب على الانقلاب، ولكن هذا السيناريو يمكن أن يحدث إذا كانت سفينة الانقلاب تغرق، فيتم التخلص من البعض، من أجل إعادة تعويم سفينة الحكم العسكري.

التسريب الخاص بمحادثات القيادات العسكرية حول محاكمة الرئيس محمد مرسي، يؤكد على أن الصراعات الداخلية، ليست مجرد أزمات عابرة، وأن صراع نخبة الانقلاب يمكن أن يتمادى، وربما يحاول البعض استغلال الحراك الثوري، ضد خصومه في تحالف الانقلاب.

العديد من الأطراف المنسوبة للحراك الثوري، لها وجهات نظر تختلف عن مسار الحراك نفسه، وتختلف عن مواقف جمهور الحراك الثوري، وهي تعمل في مساحات بينية، وربما تعمل في مساحات بين الحراك الثوري وأطراف تحالف الانقلاب.

الترتيبات الإقليمية خاصة الخليجية، لا تقوم فقط على تسوية الخلافات، بل تقوم أيضا على وضع خطط بديلة للحراك الثوري، بحيث يمكن تحويل مسار الحراك الثوري، حتى لا يحقق ثورة كاملة تقتلع المنظومة الحاكمة للإقليم العربي.

غالب المؤشرات الراهنة، تؤكد أولا أن هناك إصرارا من قوى تحالف الانقلاب، على إنجاح الانقلاب كاملا، وعلى تكريس الحكم العسكري المطلق، تحقيقا لمصالح إقليمية ودولية، ومصالح الاحتلال الإسرائيلي، الذي بات اللاعب الأهم في مسار الثورات المضادة.

وتؤكد المؤشرات الراهنة ثانيا، أن الثقة في نجاح الانقلاب باتت مهتزة، وأن هناك العديد من الأطراف التي باتت تشعر بخطورة استمرار الوضع الراهن، مما يعرض السلطة العسكرية للسقوط الحاد، وهو ما يمكن أن يغير موازين القوة في المنطقة.

ومجمل تلك المؤشرات الراهنة، تؤكد ثالثا أن هناك خطط بديلة، توضع من أجل احتواء الحراك الثوري وتوجيهه في مسار مختلف عن مساره الحقيقي، وربما مختلف أيضا عن مسار الثورة برمتها. فالخطط البديلة، قد تبدأ من نصف ثورة ونصف انقلاب، وتنتهي بإعادة إنتاج الانقلاب.

بعض الاحتمالات الممكنة لاحتواء الثورة، قد تكون مؤثرة وفاعلة، خاصة إذا كانت هناك محاولة لتصنيع حالة ثورية بديلة عن مسار الثورة الحقيقي، بدرجة تقنع جمهور الحراك الثوري، بأن تغييرا ثوريا يحدث، ولكن احتمال تلك الخطط هو الأضعف، لأنها تحتوي على درجة مخاطرة كبيرة.

بعض الاحتمالات التي يمكن أن تشكلها الخطط البديلة، ربما تكون ليس فقط أقل من ثورة، ولكن ربما تكون مثل الانقلاب، بدون أي تغيير ظاهري. ومثل تلك الخطط يصعب أن يكون لها أي تأثير على الحراك الثوري.

ربما تكون أخطر الخطط البديلة، هي تلك التي تصنع من داخل الحراك الثوري نفسه، من خلال التحكم في مسار الحراك الثوري، وتحديد مسار له ينتهي بشكل يبدو وكأنه انتصار للثورة، دون أن يؤدي إلى تحقيق أهدافها، ومعظم تلك المحاولات تحدث من داخل أطراف تنسب للحراك الثوري.

هل يتمكن الحراك الثوري من الحفاظ على مساره، وتحقيق أهدافه، رغم كل تلك المحاولات التي تضيق الخناق عليه، وتحاول تشويه مساره واحتواء نتائجه؟ ربما يكون هذا هو أهم تحدي يواجه الحراك الثوري في هذه المرحلة الدقيقة.

هناك العديد من الاحتمالات التي يمكن أن تستخدم لاحتواء الثورة، إذا تأكد أن الإجهاض الكامل للثورة لم يعد ممكنا. وفي تلك الاحتمالات، لن تنجح عملية احتواء الثورة، إذا كان جسم الحراك الثوري واعيا وقويا بالقدر الكافي، حتى يفشل أي عملية لاحتواء الثورة، وربما يحولها إلى ثورة بالفعل.

انقلاب بلا ثورة

يمكن أن تتم محاولة لاحتواء الثورة من خلال انقلاب من داخل تحالف الانقلاب العسكري نفسه، وبعيدا عن مسار الثورة، من خلال تغيير وجه الانقلاب، وتبديل بعض رموزه، والتضحية بالبعض من أجل استمرار الحكم العسكري.

أي محاولة لتجديد دماء الانقلاب، تحتاج عمليا لإجراءات مؤثرة، تبدو وكأنها استجابة للحراك في الشارع، وتكون قادرة على امتصاص كل الغضب الموجود في الشارع، وتفريغ طاقة الثورة، حتى يتم احتواء الثورة، دون أن تتحقق أي ثورة.

ليس من السهل على السلطة العسكرية أن تتخذ إجراءات إصلاحية واسعة، حتى تبدو وكأنها تجدد نفسها أو تغير من نفسها، خاصة وأن السلطة العسكرية تمادت في القمع بصورة غير مسبوقة. كما أن أي محاولة لتجديد صورة الحكم العسكري، ستكون على حساب جزء من تحالف الانقلاب.

من المرجح أن الصراعات داخل تحالف الانقلاب هي التي تقود البعض للتفكير في انقلاب آخر، يمتص حالة الحراك الثوري، وفي نفس الوقت يحسم صراعات المصالح داخل تحالف الانقلاب، وأي محاولة من داخل الانقلاب نفسه، ستكون تصفية حسابات وترتيب مصالح.

إذا تفجرت صراعات تحالف الانقلاب لحد الوصول إلى مرحلة الانقلاب على الانقلاب، ستكون تلك المحاولة لا علاقة لها بالثورة أساسا، بل ستكون مجرد استخدام وتوظيف للحراك الثوري من طرف ضد طرف آخر.

يبدو احتمال انقلاب جديد رغم أنه ليس مستبعدا، إلا أنه احتمال له العديد من المخاطر، خاصة أن أي اندفاع لصراع مفتوح بين قوى تحالف الانقلاب، يمكن أن يكون مدمرا، وله آثار واسعة، وقد يضعف الانقلاب، ويفتح الباب للثورة.

في كل الأحوال، فإن الانقلاب بدون ثورة، لن يكون إلا محاولة شكلية لا يمكن أن تؤثر سلبا على الحراك الثوري، والذي تجاوز القضايا الفرعية، وأصبح حراكا ضد كل منظومة الحكم المستبد العسكري، مما يعني أن احتواء الثورة من خلال انقلاب بدون ثورة، ليس أمرا سهلا.

ثورة سائلة

لأن الانقلاب العسكري قام أساسا على تصنيع ثورة، لذا فإن من المحتمل أن يحدث انقلاب على الانقلاب من خلال تصنيع ثورة أخرى أيضا. فقد يكون السبيل لاحتواء الثورة، هو احتوائها بثورة مصنعة أو تحت السيطرة.

احتواء الثورة من خلال مشهد ثوري مصنع، يمكن أن يعتبره البعض الوسيلة المناسبة لامتصاص حالة الثورة والحراك بشكل كافي لوقف تمدد الحراك، وبصورة تبدو لجمهور الحراك الثوري أنها بالفعل ثورة.

يمكن تصنيع ثورة من خلال التحضير لمناسبة محددة، يتم فيها السماح بحراك شعبي واسع، وقد تفتح الميادين، حتى يصبح المشهد ثوريا، وربما يصبح المشهد مثل مشهد ثورة يناير، بحيث يعيد للذاكرة أيام ثورة يناير، وحتى تكون تلك المشاهد كافية لامتصاص حالة الثورة.

أي محاولة لتصنيع ثورة بديلة تحت السيطرة، سيكون من خلال حالة ثورية تشهد حالة سيولة، أي ثورة سائلة، تبدو أنها ثورة عفوية مثل ثورة يناير، ولكنها واقعيا حالة من السيولة الثورية التي لا يمكن أن تحقق أهدافا محددة.

تصنيع ثورة يحتاج عمليا لتغيير تركيبة الحراك الثوري، وتوسيع الرموز المنسوبة له، حتى تبدو الثورة المصنعة بصورة مختلفة عن الحراك الثوري الذي قام ضد الانقلاب العسكري، وهو ما يتيح تغيير أهداف الحراك، وتصنيع أهداف للثورة المصنعة، تكون مخططة وتحت السيطرة.

احتمال تصنيع ثورة، يواجه عدة مخاطر، فالسماح لحالة ثورة، قد يؤدي إلى توسع تلك الحالة بصورة تحولها إلى ثورة خارج السيطرة، وما قد يبدأ مخططا له، قد يتحول إلى حالة خارج الخطة، بصورة يصعب السيطرة عليها، وتصبح الثورة السائلة، ثورة بالفعل.

تبدو السلطة العسكرية في وضع، قد لا يسمح لها بالسماح بسيناريو الثورة المصنعة، لأنها في كل الأحوال، وصلت لمرحلة الخوف الشديد من الحراك في الشارع، وبعد أن أنجحت الانقلاب بغطاء شعبي في الشارع، باتت تتصور أن نهايتها ستكون بحراك شعبي في الشارع.

قد تعمل قوى دولية على تصنيع حالة ثورة، ولكن القوى الإقليمية تخاف من كل أشكال الثورة، مما يجعل سيناريو تصنيع الثورة، بديلا قد لا يتم التوافق عليه من تحالف الانقلاب والثورة المضادة. وهو ما يعني أن سيناريو تصنيع ثورة، قد يكون احتمالا، عندما لا يوجد بديل غيره.

ثورة بلا قيادة

من الواضح أن وجود قيادة للحراك الثوري المناهض للانقلاب، تمثل تحديا مهما لقوى تحالف الانقلاب، بل وتمثل تحديا لأطراف عدة تنسب للحراك الثوري، فوجود قيادة للحراك الثوري، تتمثل في تحالف دعم الشرعية، يجعل الثورة لها قيادة، أي يجعلها في مرحلة تختلف عن ثورة يناير.

حصار تحالف دعم الشرعية والقبض على قياداته، ومطاردة وحصار كل من ينتمي له، لم تكن إلا محولة لتفكيك دور تحالف دعم الشرعية، بوصفه يمثل قيادة الحراك الثوري، لأن احتواء الحراك الثوري الذي له قيادة، أصعب من احتواء حراك بلا قيادة.

الحراك الثوري المستمر عبر الشهور ضد الانقلاب العسكري، لم يكن ليوجد ويستمر ويصمد بدون قيادة، والقيادة الميدانية للحراك الثوري، والتي تمثل القيادة الميدانية لتحالف دعم الشرعية، تمثل عاملا مهما في الحفاظ على الحراك الثوري.

قد لا تتمكن القيادة الميدانية للحراك الثوري من تحقيق التصعيد في بعض المراحل، وقد لا تتمكن من إحداث تغيير وتعظيم الفاعلية في بعض المراحل، ولكن القيادة الميدانية للحراك الثوري قادرة على الحفاظ على الاستمرارية والصمود، وأيضا استعادة الحشد والفاعلية.

تمثل الثورة التي لها قيادة تحديا لأي محاولات لاحتواء الثورة، لأن القيادة قادرة على وقف أي محاولات لاحتواء الثورة أو ضمها لثورة مصنعة، كما أنها قادرة على بلورة أهداف الحراك الثوري، وتعضيد موقف جمهور الحراك الثوري.

قد يكون أحد البدائل أن يتم تفكيك قيادة الحراك الثوري، حتى يمكن إجهاض أهداف هذا الحراك، واستبدالها بأهداف بديلة، تمكن تحالف الانقلاب من إعادة إنتاج نفسه. وحتى يمكن تفكيك تماسك الحراك الثوري، يصبح من الضروري ضرب قيادة الحراك.

احتمال أن تخطط السلطة للاستجابة للحراك الثوري بعد تفكيك قيادته، حتى تحتوي الحراك بعدة إجراءات دون تحقيق أهداف الثورة، يتوقف أولا على قدرة السلطة على تفكيك قيادة الحراك، وثانيا على وصول السلطة لمرحلة تقتنع فيها أن سقوطها أصبح محتملا.

لأن الحراك الثوري بعد الانقلاب له قيادة، فإن تلك القيادة هي القادرة على رسم مسارات تحقيق أهداف جمهور الحراك الثوري. والقيادة الميدانية لتحالف دعم الشرعية، أصبح لها حضور فاعل، بغض النظر عن ما يحدث على المستوى السياسي في قيادة التحالف.

قد يكون تفكيك القيادة الميدانية للحراك الثوري صعبا، وربما تكون أي محاولة للاستجابة للحراك الثوري حتى يتم احتواءه، تنطوي على مخاطر، تجعل السلطة العسكرية لا تقدم على هذا الاحتمال، إلا مضطرة.

ثورة بدون الشرعية

لأن سلطة الانقلاب العسكري تواجه حراكا ثوريا مستمرا وصامدا، وله قيادة ويستند على قاعدة شعبية، وله حركات تقود مساره، خاصة جماعة الإخوان المسلمين، لذا فإن بعض أطراف تحالف الانقلاب، تحاول تفكيك تلك الحالة بأي طريقة.

العديد من المحاولات تستهدف تصنيع قيادة جديدة للحراك الثوري، وربما يحدث هذا بسبب صعوبة تفكيك قيادة الحراك، لذا يتم البحث عن قيادة بديلة، يمكن لسلطة الانقلاب أن تتعامل معها، وتتوصل من خلالها إلى حلول تناسب السلطة العسكرية.

هناك العديد من المحاولات المستمرة لتغيير أهداف الحراك الثوري، خاصة هدف استعادة الشرعية والمسار الديمقراطي، وعودة الرئيس والدستور ومجلس الشورى، لأن سلطة الانقلاب تدرك أن هدف استعادة الشرعية يعني ضمنا سقوط منظومة الحكم العسكري.

يصعب على سلطة الانقلاب أن تحتوي الثورة إذا استعيدت الشرعية مرة أخرى، وعاد الرئيس المنتخب محمد مرسي. معنى هذا، أن مطالب عودة الشرعية تمثل حائلا يعرقل أي سيناريو لاحتواء الثورة وتغيير أهدافها. لذا تتم العديد من المحاولات لتعديل هدف استعادة الشرعية.

هناك محاولات مستمرة لتغيير موضع جماعة الإخوان المسلمين داخل الحراك الثوري، لأن الجماعة تمثل العمود الفقري والنواة الصلبة للحراك، ولا يمكن احتواء الحراك الثوري وتغيير أهدافه، مع وجود قوة منظمة، تجعل الحراك منظما، وتؤمن وجود قيادة ميدانية له.

هناك أيضا العديد من السيناريوهات، التي تقوم على تصنيع حالة جديدة، تبدو أكثر ديمقراطية، بشرط استبعاد الإخوان ولو مرحليا من العملية السياسية، وهو ما يعني أن هناك محاولة لتصنيع ديمقراطية شكلية يمكن السيطرة عليها، وهو ما يتطلب تنحية القوى الأكثر شعبية.

في كل المراحل كانت هناك محاولات لبناء ديمقراطية موجهة، أي نظام يبدو ديمقراطيا، ويدار من خلف الكواليس، من خلال سلطة غير مباشرة للمؤسسة العسكرية، ويظل هذا الاحتمال قائما، كبديل يمكن اللجوء له.

استعادة سيناريو الديمقراطية الموجهة، أي المسيطر عليها، يتطلب تغيير بوصلة الحراك الثوري، وتفكيك قيادته، وتنحية دور جماعة الإخوان المسلمين، بل وإبعادها عن العمل السياسي، حتى يتم تكريس منظومة حكم ديمقراطية شكلا، وعسكرية مضمونا.

الخلاصة

هناك العديد من المحاولات للبحث عن بدائل للثورة، خاصة إذا تعرضت السلطة العسكرية لخطر السقوط، فالقضية بالنسبة لتحالف الانقلاب، هي البحث عن بدائل، تمكنه من إعادة إنتاج نفسه بصورة مختلفة فقط، ودون أي تحقيق لأهداف الثورة.

الحراك الثوري يواجه بالفعل عدة محاولات لتغيير مساره، وكأن هناك من يريد أن يحول مسار الثورة، ثم يغير شكل السلطة العسكرية، وبهذا يصل لحل بديل عن الثورة، وهو واقعيا ليس ثورة بل انقلاب، وفي أحسن الأحوال، قد يكون نصف ثورة ونصف انقلاب.

ما يفشل مخططات احتواء الثورة، أن تكون الثورة لها قيادة متماسكة، وجمهور متماسك ميدانيا، وقيادة ميدانية متواصلة تنسق حراك الثورة. فقيادة الثورة، تجعل الحراك منظما، وتجعل له مساره وأهدافه، التي لا يمكن تجاوزها.

استمرار الحراك من أجل تحقيق أهدافه، أيا كانت المخططات التي تدور حوله، ودون أن يستجيب لأي محاولات لتغيير مساره وطبيعته، تمكن الحراك من تفويت فرص سيناريوهات احتواء الثورة. كما أن التماسك الجماهيري حول أهداف الثورة، يفشل محاولات احتوائها.

يتميز الحراك الثوري بدرجة من التنظيم تجعل احتوائه صعبا، وتتميز السلطة العسكرية بدرجة من غطرسة القوة، تجعل قدرتها على المرونة صعبة. لذا سوف تتكاثر البدائل، ولكنها قد تغيب قبل أن تظهر أحيانا، حتى يصبح من الحتمي تجربة بديل منها لاحتواء الثورة.